اكتئاب

منذ متى وهو متغيب عنا؟ .. بل قل منذ متى وهو على حاله المرثي له هذا؟ .. هكذا دار الحديث بين الأبوين بالمنزل مشيرين في حديثهما هذا الى ابنهما الذي وقع ضحية لبراثن سيطرت عليه لا يعرف الى أين سيمتد مداها، لكنها نابعة من سنوات طويلة من أعماق حزنه ونفسه المضطربة، وعدم احتواء من حوله له، فلم يعد يعتق رقبته الاختناق، ولم يعد فنجان قهوته المعتاد يؤنس وحدته، هو الآخر ابتعد عنه بمسافات بعد أن كان صديقه الوفي الوحيد، استمع المسكين لخطاب أبويه لكنه لم يعبأ به، وحاول أن يهرب ببصره عبر النافذة لكن الألم ازداد حدة، حتى بلغ ذروته وهو يسحب جسده مبتعداً عنها، وبالكاد يسحب أنفاسه ويطردها، ثم جلس على اريكته بلا هوية ولا هدف، شارد الذهن، يتردد في مسامعه صوت اشقائه وهم يطرقون بابه مازحين، فازداد اضطراباً وانزعاجاً، وانتابه احساس بالإحباط حيال صيحاتهم المتكررة، وهو يردد في حسرة وأنين "ما الذي على فعله وقد جربت كل الأدوية؟" .. "لقد عانيت واشتكيت واشتكت قدماي من ذهابي وإيابي متردداً على الطبيب ولكن في كل مرة يفشل الأمر"، ووقفت أمه المنهمكة في أمور المنزل ومصاريف الأسرة تنظر اليه بعجز وأسى

حين ارتمى تحت قدميها يشكو مرارة الغربة وحسرة الأيام، وهي تقول له ملوحة بيدها حتى كادت تخترق رأسه "ما الذي ينقصك يا بني؟" .. "لديك كل شيء في الحياة ولم نحرمك من شيء يوماً ما" .. "ما الذي جنيته انا ووالدك المسكين غير أننا وهبنا حياتنا لأجلك أنت وأشقائك؟" .. "يجدر بك أن تنظر لمن هم أقل منك شأناً"، كانت كلماتها تخترق رأسه كعيدان ثقاب مشتعلة، وتمتم قائلاً .. ماديات .. ماديات .. هل الحياة ما هي إلا طعام وشراب ومال .. ليتني كنت جزءاً من الماديات، وأخذ يتقهقر من أمامها حتى غاص في بركة من برك الاكتئاب حالكة السواد، لم ير فيها إلا بصيص نور من أوهامه، ولم يشعر فيها برأسه ولا حتى بقدميه .. فكر ملياً أن ينهي حياته لكن إرادته كانت أقوى من ذلك، وذهب للطبيب في خطوة إيجابية إن لم تكن عديمة الفائدة .. يصف له الطبيب الدواء هو نفسه الذي عانى به سابقاً ولكن بقناع جديد، سأله الطبيب عن سبب مجيئه، فأخبره بعدم جدوى علاجه السابق الموصوف، فسأله الطبيب عن ما إذا كان قد أمتنع عن تعاطي حبات العلاج يوماً ما، فرد عليه بالنفي؛ مذكراً الطبيب أنه لا شيء سوى الاهتمام بالماديات في الحياة .. ما من أحد يهتم بمشاعره، كما لا صبر لأحد لسماع شكواه، ثم أردف يقول لطبيبه: "أتذكر أنك كنت قد نصحتني بالتفاعل مع البشر وقلت لي أن التفاعل من شأنه

اكسابي خبرات تمكنني من حل مشكلاتي؟"، "ولكن أين البشر؟!"، "أنا وردة في كومة قش"، كم اشعر بحواجز وازمان تقدر بسنين عمري بين مشاعري وإحساس البشر من حولي .. بعدها غادر عيادة الطبيب منتظراً دقات عقارب الساعة السابعة مساءاً ليلتهم بقليل من الماء حبات العلاج الجديد، مرت أيام شعر بعدها بقليل من التحسن وبوادر أمل، وازداد النشاط لديه فجأة وهو يودع أيام الاكتئاب الخاوية على عروشها ولياليه التي كانت تصرخ وهي تغني، بينما تحدثه أعماق نفسه أنها استراحة وسيعود، وحتماً سيعود في دائرة مغلقة دون جدوى.